المظاهر الفنية في المغرب منذ 13000 سنة
الزخرفة والنحت على قشور بيض النّعام

د/.دراجي عبد القادر

مقدمة:

نتعرف على النعامة في الجزائر انطلاقا من العصر الحجري القديم الأسفل، حيث عثر على بقاياها الحفرية في موقع باليكاو (تغنيف) بالقرب من معسكر. اختفت من مناطق الهضاب العليا والجنوب الجزائري في الجزء الثاني من القرن x/x، استعملت الشعوب المختلفة بتعاقبها الزمني بيض النعام. هذا وبدراسات الاثنوغرافية حول عادات شعوب البوشمان لافريقيا الجنوبية من جهة ونتائج الحفائر من جهة أخرى سمحت باثبات الدور الذي لعبة بيض النعام في حياة بعض المجموعات السكانية. في الجزائر وخلال فترات ما قبل التاريخ، خاصة خلال العصر الحجري القديم الأعلى المتأخر، ثمّ خلال العصر الحجري الحديث بامكاننا أن نتحدث عن حضارة لبيض النعام خاصة بالنسبة للصحراء الجزائرية الشمالية. هذا الطير ممثل عدّة مرات في الفنّ الصخري (رسوم ونقوش).

حاليا يمكننا أن نتعرف من خلال الأوجه المختلفة التي تقدمها قشور بيض النعام الحفرية، سواء من ناحية السمك، أو وضعية الثقوب على البيضة، على أنّ عدّة أنواع قد استعملت منها:

النوع العام لنعامة Struthio- Camelus وكذلك نوع- Struthio Molyb Dophanes الذي يعيش حاليا في بلاد الصومال.

بعد استهلاك محتوي البيضة، استعملت بعد ذلك كاناء أو وعاء، هذا في حالة وضع الثقب دون أن تنكسر البيضة. في حالة عدم انكسار البيضة، نحصل على "زجاجة" (BOUTEILLE) جدّ وظيفية خاصة في فترة لم يخترع فيها الفخار (العصر الحجري القديم الأعلي) وكذا منافسة مع الأواني "VASES" الطينية خلال العصر الجديد. لم يقتصر الاستعمال على البيضة كاملة بل إستعمل الحطام (أي القشور) في ناتج فنّي آخر "RONDELLES D'ENFILAGE"، كانت المساحة الملساء للبيضة

كدافع للفنانين رغم أنه في غالب الأحيان ما تكون المواضيع الفنية سحرية (أوروحية) أكثر منها فنية محضة. على العموم هذا يكون أساسا ناتج عن تقنية النحث أو الحزّ أكثر من عن الرسم.

نتطرق لهذه المظاهر الفنية في الجزائر أي في كلّ من المناطق التلية، الهضاب العليا، الأطلس الصحراوي والصحراء الجزائرية، حاليا لا نملك دلائل على إستعمال البيضة خلال العصر الحجري القديم الأسفل والعصر الحجري القديم الأوسط، في حين خلال العصر الحجري القديم الأعلي المتأخر يكون الاستعمال بصورة مكثفة، في المناطق التي يسودها "القفص النموذجي "أيالجنوب القسنطيني وإنطلاق من بداية هذه الحضارة 7000 سنة ق.م. نجد بقايا هامة لقشور بيض النعام" في الرماديات" ذات التوزيع الكبير حيث تصل حتى السهول الكبرى لمنطقة سطيف وذلك بالمحافظة على المناطق الأصلية لها، خلال تطور الحضارة القفصية أي من 7000 الى 4500 سنة، استعملت قشور بيض النعام باستمرار.

في المناطق التي سكنتها شعوب الحضارة "لايبرية المغربية" من 13500 حتى 8000 سنة ق. م. أي في المغرب، الجزائر والمناطق الساحلية عامة، توجد قشور بيض النعام بندرة رغم أننا نعثر على البقايا العظيمة لهذا الطير أي النعامة.

الثقافات الأخرى للعصر الحجري القديم الأعلي، خاصة بالصحراء الشمالية إستعملت البيضة بصفة مكثفة، لتزداد أكثر عند شعوب العصر الحجري الحديث، هذه المادة الأولية متوفرة بكثرة بالمناطق الاستبسية (ذات الحشائش القصيرة).

"زجاجات "من قشور بيض النعام:

تعتبر من الأشكال المستعملة بكثرة إنطلاقا من البيضة، كان استعمالها أساسي نظرا للعدد الهائل من قشور بيض النعام، رغم ذلك فمن النادر أن نعثر على الزجاجات وهي كاملة نظرا لخفتها وسهولة كسرها، نتيجة للعوامل المناخية والديناميكية، أكتشفت البعثة التي قادها FLATTERSانطلاقا من عام 1881، أربعة بيضات كاملة في كلّ من موقع "حاس الرطايمية" بين كل من مدينة ورجلان والطاسيلي. كما أشار الباحث T.FOUREAU الى عدد لايستهان به من البيضات في منطقة العرق الشرقي وذلك في نهاية القرن الماضي، كما أكشف THERIET على عدد منها في الخمسينات.

طالما تكون هذه البيضات أو قشورها تحمل زخارف، ممثلة أساسا بخطوط محززة، الرسومات نادرة، الثقب تكون موجودة في إحدى القطبين، في موقع حاسي المويلح ثمّ العثور على حوالي 11 بيضة، يتراوح قطرها من 14 الى 16 ملم، سيكون وزن البيضة الواحدة 245 الى 300 غرام، ربما تكون

في محتوي طباقي من جهة وإنتماءها للقفصية العليا من جهة أخرى.

توزيع الزخارف:

نشير في البداية الى امكانية العثور على الزخرفة على مساحة الجدار الداخلي للبيضة وهي ناتجة عن استعمال أداة حادة عند تحضير الطلاء أو المساحيق مثل ماهو الحال في القطعة التي عثر عليها في طبقات موقع الداموس الأحمر والتي تحمل بصمات واضحة للطلاء الأحمر وبعض الحزوز التي توجد لوحدها دون طلاء مثل ماهو الحال في عين زنوش.

تبقى النسبة الكبيرة للقشور المزخرفة ذات زخرفة خارجية وتكثر بها الزخارف الفوهية في نفس الوقت تمتدّ الى بطن البيضة وهنا يجب الانتباه الى أنّ هناك خطوط تستعمل لتحديد الأشكال وهي الأهّم، وغالبا مايصعب التعرف عليها نظرا لانكسار الخطوط وإنقسامها الى خطوط وقطع صغيرة جدا، وأخرى تملأ بها المساحات الشاغرة وقد يحصل أن نجد قطعة مغطاة بالدعامات ولاشيء يسمح بالتأكيد أنّ الدعامات كانت الموضوع الرئيسي للزخرفة في هذه الحالة.

وكثيرا ما تكون الدعامات والشباك أو الظلال محصورة داخل خطوط مستقيمة أو مقوسة توحي بأنها استعملت فعلا لملأ الفراغ، وسنخصص فيما يلي فقرتين لكل من الزخارف الداخلية والفوهية.

- القشور المزخرفة من الداخل:

انّ الزخارف الداخلية لبيض النعام عموما محدودة جداً. وذلك خلافا على الخطوط المشتتة. إنطلاقا من ذلك يمكن القول بأنّ هناك خطوطا وضعت ربما من عمد فهي مستقيمة كما تدل على ذلك الأشكال الواردة من مغارة "كلاريون" وطبقات" روليلاي" **(أنظر الشكل 01)**

ونادرا جداً ماتكون الخطوط المقوسة مشتركة مع الملاحظة أنّ القطعة يمكن أن توجد مزخرفة من الجهتين[1] مع أنّ هذا ليس دائما في متناولنا.

- الزخرفة الفوهية:

لاشك في أنّ الكسور التي تحمل زخارف فوهية آتية من بيضة كاملة وهي شديدة التنوع، سواء تتناسق مع الفوهة نفسها التي تحتم نوعا من الترتيب المنفرج للزخرفة أو أنها تكونّ امتدادا لزخرفة بطن البيضة بحيث تزول ضرورة انفراج الاشكال (أنظر الشكل 02) والواقع أنّ الزخارف الفوهية

---

ha-(1)Camps Faber (H): Matière et arts mobiliers dans les préhistoire Nord-Africanine et sa rienne. (1966), P. 334-35.

تتكون غالبا من خطوط منفرجة بالنسبة للفوهة وهذا النوع من الزخرفة نابع مع اعتقاد قديم ومفاده أنّ الأرواح الشريرة يمكن أن تدخل الآنية من فوهتها فجاءت الزخرفة الفوهية كنوع من الحماية كما يمكننا اعطاء تفسير آخر أكثر واقعية ويتمثل في سهولة الزخرفة انطلاقا من الفوهة.

زخرفة الأقداح، الأنواط الأقراص:

تختلف زخرفة هذه الأدوات نوعا ما عن زخارف القطع الناتجة عن البيضة الكاملة، فالمساحات هنا صغيرة أثرت على تنضيم الزخارف ولهذا لوحظ كثرة النقاشات أو الحزوز الموزعة بانتظام على حافة القرص أو النوط وقد تمّ التعريف على هذه العناصر على الخصوص في المناطق الصحروايةفي تبلبلة فم سعيدة وديبيديدي [1] بمنطقة مزاب. أمّا عن النقاط المستعملة خصوصا في العصر النيوليتي فانها مرتبة في أربعة خطوط متوازية مكونة من نقاط رقيقة مثل زخرفة حاسي بوشة، وقد غلبت الخطوط المقوسة في الشمال على زخرفة هذه الأدوات منذ القفصية القديمة حيث وجدت في خنقة المحاد، مرتبة في مجموعتين متعارضتين مكونتين من أصناف الدوائر المتراكزة مباشرة تحت فوهة النوط وجدت زخارف التنقيط حتي في القفصية لكنها غالبا ما تكون مشتركة مع الخطوط المقوسة وقد نعثر على ثقب النوط محاطا بدائرة معينة بنقاط، وظهرت زخارف التشبك على الأقداح في كلّ من موقع خنقة المحاد والداموس الأحمر.

المقومات الأساسية لفنّ الزخرفة

لقد وضعت السيدة كومبس المقومات الرئيسية لفنّ الزخرفة على قشور بيض النعام في القفصية وذلك من خلال دراستها للقطع الواردة من سبع محطات تعود لهذه الفترة ومكنتنا بذلك من التعرف على ميزاتها حيث يلاحظ كثرة إستعمال الخطوط المتوازية ووجود الزخارف الأهدبية والمشطية خاصة في بئر خنفوس ودكان سنوفية بالاضافة الى مغارة كلاريون. كما عثر في بئر زريف على أشكال زخرفية تمثل تموجات أهدبية يمكن أن توحي بشكل حيواني اذا ما قورنت بالتقنية المستعملة في رسم طبّي في منطقة ريودي أورو بالصحراء الغربية لكن كونها مفتتة الى قطع صغيرة جداً لايسمح بتأكيد هذا الرأي نهائيا. ومن بين الخطوط المستقيمة نذكر وفرة الدعامات في دكان شنوفية ومغارة كلاريون وقد وقد تنتهي بمستقيمات أو تقويسات. واستنتجت السيدة كامبس من هذا أنّ الدعمات لم تستعمل

---

(1) Morel (J): Le Capsien du Khanguet el Mouhaad (Commune mixte de Morssot. Départ. de Constantine, in Libyca, T.1, (1953),pp. 103-134.

سوى لملئ المساحات ذات المحيطات المتنوعة كما وجدت الحراشف المائلة بالإضافة الى استعمال المظلات الأفقية والعمودية بنسبة أقلّ من سابقتها وتتنوع لتشمل المظلات المائلة المعاكسة وتكثر الخطوط المقوسة في محطة بورطال فكير [1] وبئر زاريف وكثيرا ما أظهرت على شكل تموجات وأكاليل. المميزات الخاصة بالقفصية القديمة تتمثل في الندرة الواضحة للزخارف المنقطة فهي منعدمة في ركان شنوفية وبئر زاريف بينما وجدت مرة واحدة في كلّ من المكتبة [2] وبئر خنفوس وفي برطال فاكير وجدت قطعة واحدة مزخرفة على هذا القبيل، ميزة أخرى نضيفها وهي ظهور الزخارف المعقدة منذ هذه الفترة والتي تتبع إمكانية تقبل وجود أشكال مركبة منذ الآن قد تكون لأشكال حيوانية لولا شدة انكسارها وأخيرا نضيف غلبية الترتيبات المتوازية على المتعاكسة في الزخارف الفوهية.

التطور:

لقد مكنت الدراسات التي أجريت على قطع قشور بيض النعام الذي عثر عليها بطبقات القفصية العليا، من تتبع مدى تطور زخرفتها حيث لا حظت السيدة كامبس تحسّن هذه الزخرفة وارتفاع نسبة القشور وزيادة في نسبة الأشكال البسيطة التي عرفت من قبل [3]. في كلّ من منطقتي تونس وتبسة، بينما المناطق الغربية تبقى جدّ فقيرة، تؤكد السيدة كامبس هذا بقولها أنّه لم نعثر ولو على قطعة واحدة مزخرفة في كلّ من ناحيتي سطيف وقسنطينة على عكس المنطقتين الأولتين حيث نجد كلّ الأشكال المعروفة في القفصية القديمة ممثلة بدقة بالاضافة الى أنواع جديدة كالمشطية المنكسرة وغيرهما من خطوط مظللة متوازية مع استمرار غلبة الدعامات الى جانب الخطوط المائلة المتوازية لكنّ الخطوط المقوسة توسعت بكثرة وخاصة منها الخطوط المقوسة البسيطة التي قد تكون مشطية متوازية أو شبكية أكثر منها متعاكسة.

وتدخل الأكاليل والتموجات المشطية أو المتوازية غالبا ضمن الزخارف المعقدة بينما يقلّ تمثيل الدوائر وخاصة منها المرتكزة المظللة[4] وهكذا حافظت الزخارف المتوازية غلبتها بالمقابل نشير الى غياب الزخارف المائلة الأهدبية المتعاكسة في القفصية العليا وتغيرت وضعيات العناصر المتقابلة

(1) Gobert (E.G): L'abri de Bortel Faker, in Libyca, TV (1957) p.39-45.
(2) Gobert (E.G.): El Mekta, station princeps du Gapsien. Revue Karthago T III, (1952)
(3) Gobert (E.G): op cit, pp. 3-79.
(4) Camps Faber (H): op cit. pp. 357-59

بينما تطورت المنقطات كثيرا. فيما يخص الزخارف المعقدة المشار اليها في القفصية القديمة فانها هنا أكثر استعمال ووفرة، خاصة في طبقات محطة روليلاي وبعيدة عن الاحتمالات التي توحي بها الزخارف المعقدة فانّ قطعة بيض النعام التي عثر عليها بوادي منقوب وهي كما يدلّ عليها الباحثين، مرسومة ومطلية، قد أثارت جدلا طويلا حولها لما تكتسيه من أهمية بالغة في تطور الزخرفة من جهة وتحديد تاريخ لها من جهة أخرى وذلك نظرا للظروف الغامضة التي أحاطت بها، والمهمّ أنّ النقاش انتهي. بارجاعها الى القفصية العليا وتبلغ أبعاد هذه القطعة بعد اعادة تركيبها (8 سم x 9سم) وتحمل بقايا الطلاء الذي يمتد حتى الواجهة الداخلية للقشرة وبعدها قام الفنان القفصي برسم ثور ونظرا لانكسار القطعة فقد ضاع الجزء الأمامي للحيوان ولم يبق سوى الجزء الخلفي والذيل ورجل واحدة منثني [1].

مميزات الرسوم والنقوش في النيوليتي الشمالي:

ضعف استعمال بيض النعام بصفة واضحة في النيولتي الشمالي (التلّي) وقلت الزخرفة وافتقرت في مجموعها الى التنوعات التي كانت قد وجدت من قبل ومن السهل جداً تفسير هذه الظاهرة بظهور منافس أكثر ملائمة لواقع الحياة في العصر الحجري الحديث وهو الفخار الذي سوف يتطور خلال هذه المرحلة وسيقضي تدريجيا على أستعمال بيض النعام لأنّ الفخاريات يمكن تشكليها حسب ماتقتضيه الحاجة ومع هذا فانه لايمكننا القضاء دفعة واحدة على استعمال أواني طبيعية مثل بيض النعام [2]، وهكذا في المناطق القفصية قد استمر التأثير القفصي بطريقة لاجدال فيها رغم عدم تنوع العناصر الزخرفية خلال الفترة النيوليتية [3] بالمقارنة مع القفصية وبالمقابل فاننا نسجل ظهور الأشكال الحيوانية بصورة جلية، وفي الكهف النيوليتي كاف لعقاب حيث لايظهر التأثير القفصي على الصناعة الحجرية فانّ الزخارف جافّة وأكثر ابتدائية وهندسية وتمتاز بكثرة زخارف المستقيمات والغياب الكلّي للمنقطات ويزداد هذا الفقر كلما ابتعدنا عن المناطق التي سكنها القفصيون فموقع بوزبوين مثلا أعطى قطعة مزخرفة بشكل يمثل نعامة ورغم هذه الدرجة التي وصلها من التطور الا أنه في المقابل يفتقر كثيرا على الزخارف الأخرى، وقد قدم كهف سيدي محمد الطاهر بالأوراس بعض الزخارف ومع هذا يزداد تشتت هذه الزخرفة كلما واصلنا طريقنا نحو الجزائر الغربية [1] بحيث تنعدم

---

(1) Vaufrey (R): Préhistoire de l'Afrique. T1, Maghreb, Tunis 1955 p. 193.

(2) Camps Faber (H): op cit; p.371.

(3) Cadenat (P): La station préhistoire de Coloumnata (commune mixte Tiaret), in: Bull. de la soc. de geog. d'oran. TLXX (1948), pp. 31-66.

في المغرب الأقصى.

رغم أنّ عدد المواقع النيوليتية أقلّ بالنسبة للقفصية الا أننا نستطيع التعرف على التوازن في معدل الزخارف المستقيمة، المقوسة والمنقطة وإذا كانت كلّ الزخارف البسيطة موجودة فانه بالمقابل يلاحظ قلة الزخارف الأهدبية والمشطية على عكس وفرة الخطوط الأفقية والعمودية أو المائلة مثل المظلات المتوازية أو المختلفة على أننا لانجد الخراشف المائلة والمختلفة أو المتعاكسة وتكثر الدعامات المشبكة في حين فقدت الخطوط المنكسرة توازيها بينما تعددت الأقواس المتوازية سواء كانت تحيط بالفوهة أو أنّها تشارك في تحضير الزخارف المعقدة، كما وجدت الأقواس المظللة والشبكية بعكس الأكاليل وتكون التموجات متوازية ومظلمة مثل الدوائر المتراكزة في حين تكثر المنقطات وتكون أمّا مرتبة في شكل خطوط مستقيمة أو متوازية ومنفرجة ويمكن أن تحيط بالفوهة ونادرا ما تكون على شكل خطوط هي ذاتها مقوسة منفرجة كما استعملت التنقيطات لملئ المساحات الفارغة ففي هذه الحالة نجدها غير منظمة ونفس التوازن نجده بالنسبة للزخارف البسيطة المنفرجة أو المركبة الموروثة عن الفترة القفصية، نسقت معها زخارف أخرى، ويبقى أنّ الميزة الرئيسية للفترة النيوليتية هي اعطاء الدليل على ازدياد الزخارف التمثيلية.

ويرى الدكتور قوبير أنّ هناك تشابها بين ذلك الرسم الهندسي المنمنم الذي عثر في طبقات موقع الردايف[2] وأسلوب رسم الثعالب على قطعة حجر مزخرفة بموقع الداموس الأحمر، ويتضح استعمال الخطوط الهندسية لرسم الأشكال الحيوانية في رسم مركز للضبية بواسطة مجموعة من الخراشف وضعت بلاتساوي لتمثيل الرأس وجزء من الجسم والأرجل مع ملاحظة انقطاع أحد الخطوط للتمكين من اظهار شكل العنق الذي تميز بوضوح عن الرأس بفضل ذكاء الفنّان الذي توقف عن استعمال الخراشف في النقطة المناسبة ومثل القرنين بخطين غير متساويين في الطول. وقد استطاع فوفري[3] أن يطابق بين هذا الرسم وقطعة أخرى بحيث تظهر رجل خلفية وباقي جسم الضبية.واستعمل الفنان نفس الأسلوب لتمثيل ضبع لكنّ بخطوط أكثر رقّة وإن كانت الرأس غير موجودة الا أنّ حوافها بدأت تظهر وهناك رسم تمثيلي آخر من الصعب جداً تفسيره، فبينما رأى الدكتور قوبير أنّ الرسم هو لرأس نعامة في حين أنّ السيدة كامبس تعطي وضعية الخطوط التي ينتهي بها تقف ضدّ هذا الأحتمال وعلى

---

foyer (1) Goetz (CH.) et Schall (M): Découverte de copuille d'oeuf d'autruche Gravée dans un littoral d'Oranie.

in: Bull. de la Soc. préh. Française (1964) n 4, pp. XCI- XCII

(2) Gobert (E.G.) L'abri Redeyef. in Anthropologie, TXXIII (1912) PP. 151- 168

(3) Vaufrey (R) op.. cit., P. 159

العكس فانها في صالح الفكرة الأولي وكان لاكتشاف أ. روبير عام 1900 بطبقات موقع بوزبوين أهمية خاصة لما أثاره من شكوك خاصّة لدى ببلادي [1] وتوجد القطعة حاليا بمتحف قسنطينة وقد مثلت بواسطة خطين لا أكثر عرف الفنّان كيف يعطي لكلّ من الرقبة والرأس الأبعاد اللازمة دون استعمال الحراشف ولا التشبيكات مثل ماهو الحال من موقع روداييف وهكذا تبقى الزخارف التمثيلية بمثابة الطابع الرئيسي المميزة للفترة النيوليتية عن سابقتها من الحضارات.

النيوليتي الصحراوي:

لابد من الاشارة في البداية الى أنّ النيوليتي الصحراوي يحتوي عى بعض مميزات نظيره الشمالي على أنّ الزخارف هي أكثر غنى من هذا الأخير وتقلّ المواقع المحتوية على القشور المزخرفة كلما اتجهنا نحو الشمال وحسب السيدة كامبس فاننا نجد في النيوليتي الصحراوي في نفس الوقت ميزات القفصية العليا وخاصة في النسبة المرتفعة لزخرفة المستقيمات بالاضافة الى التوازن الملاحظ في النيولتي الشمالي بالاستعمال المكثف للزخارف المقوسة وزخارف التنقيط أي أنّ هناك اثراء بالنسبة للنيوليتي الشمالي وتتناسق مع القفص الأعلي وترتبط زخارف منطقة الوادي[2] بالمجموعة القفصية على أنّ لها ميزاتها مثل وفرة الخطوط المقوسة الأهدبية والدوائر الأهدبية والخطوط المسحوبة التي تحصر أشكالا بليصعب تفسيرها. وعن الزخارف المشطية والأهدبية التي يقلّ في النيوليتي الشمالي فانّ نسبتها كبيرة هنا ويمكن أن ترتبط بالقفصية عن طريق التأثيرات الواردة من الشمال وهذه الميزات ساعدت على ظهور الرسوم التمثيلية التي برزت على الخصوص في الصحراء الغربية بطبقات موقع ريودي أورو ومن القشور المزخرفة عثر على قطعتين من نفس البيضة، واحدة مزخرفة بتموجات أهدبية من الداخل تحدد جسم ظبية، رسم بطنها بخطين، بينما كثرت الحراشف وسط الخطوط أطرافها حيث تغطي تقويبا كلّ المساحة، أمّا القطعة الأخرى فانها تترك المجال لظهور العنق ذات القاعدة المخددة، حيث مثلت الأخاديد بظلال مائلة تحت وبين حواف الخطوط التي تحدد مساحة القرن.

أما الوجه والرأس فقد مثلا بخطوط أهدبية وظلال ويظهر من هذا الأسلوب أقلّ هندسية وجفاف من سابقيه وأكثر تشابها حسب السيدة كامبس[3] من الأشكال الحيوانية على صخور الأطلس الصحراوي مثلا.

---

(1) Pallary (P): La préhistoire dans la région de Tebessa, in: l'Anthropologie (1911) T. XXII

(2) Maitre (J.P): A propos du Faciès d'el oued in libuca in libyca, TXI (1963)

(3) Camps Faber (H): op., cit, P. 381

انّ بيض النعام الذي استعمل خاصة من طرف القفصين وبعدهم النيوليتيون يعتبر خلال عهود ماقبل التاريخ المادة أكثر أصالة ومحلية وقد تعرفنا على وحدة زخرفية في مختلف مراحل تطورها الذي يجد تفسيره في الأصل القفصي لهذا التأثيرات.

تصنيف الزخارف

بعد أن رأينا أهمّ العناصر الزخرفية التي صاحبت كلّ فترة، حضارية ابتداءا من القفصية القديمة حتى النيوليتي، فانه من المهمّ اعطاء تصنيف عام يشمل الأشكال الزخرفية لكلّ الفترات المذكورة، وقد وضع هذا التضيق من طرف السيدة كامبس وتطلب منها دراسة معمقة شملت سبع محطات قفصية قديمة وثلاثين (30) من القفصية العليا و(18) محطة نيوليتية شمالية و (26) نيوليتية جنوبية. مكنتها هذه الدراسة من حصر أهمّ الأشكال التي تعرفنا على توزيعها وتقوم أساسا على ثلاث عائلات هي: الخطوط المستقيمة، والمقوسة والمنقطة ويمكن أن نصفها كمايلي:

I- عناصر مشطية وأهدبية بسيطة: وهي خطوط هندسية تسمى:

1)- زخرفة المستقيمات: لكون الأشكال تخلق من الخطوط الهندسية أهمها: الخط المستقيم الذي قد نجده أفقيا، عموديا، مائلا وهي خطوط تسهل التفرقة بينها ان كانت الزخرفة فوهية ويمكن أن يضيف لها شكلا آخر هو الدعامة وتنتج عن التقاء خطين مائلين الذين يمكن أن يكونا غير متصلين، الى جانب الخط المنكسر البسيط وهو خط ناتج عن طريقة مائلة مع تغير تتابعي في اتجاهها. (أنظر الشكل 03).

2)- زخرفة المقوسات: تتكون من ثلاثة أشكال رئيسية وهي الآقواس، العقود والأكاليل وتنتج عن تتابع الآقواس المتصلة النهايات، ثمّ التموجات وهي أنّ الأقواس توجه تارة الى الأعلى وتارة آخرى الى الأسفل في حركة واسعة غير منقطعة (أنظر الشكل 04).

3)- زخرفة التنقيط: تطلب جهدا ربما أكثر من الزخرفة بالحزوز لأنه بدلا من سير الأداة على مساحة القشرة فانّ العمل هنا يتطلب ضغطا أقوى نحو الأسفل لتحقيق النقاط ثمّ ترتيبها على شكل خطّ مستقيم ومقوس (أنظر شكل 05).

4- الزخرفة المشطية أو الأهدبية: لقد أدخل هذا النوع من الزخرفة ضمن العناصر البسيطة، لأنّ الأمر يتعلق بخطوط مستقيمة أو مقوسة أضيف اليها تشويكات دقيقة متوازية، وعندما تكون على الخط الأساسي نحصل على خط أفقي أو عمودي مشطي، ونفس التشويكات قد تكون زاوية حادّة بالنسبة للخط الرئيسي بحيث نحصل على خط عمودي أو أفقي أهدبي. وهكذا حسب توجيه

التشويكات يخلق لدينا خطّ منكسر، قوس أو اكليل، جميعها أهدبية مثل ماهو الحال عند الأقواس والدوائر ومن الممكن أن نجد الدعامات أما مائلة على الخط الرئيسي الذي تستند عليه.

ومن الطبيعي جداً أن لاتكون الزخرفة التنقيطية مشطية أو أهدبية، وبالمقابل توجد الزخرفة الأهدبية في الزخارف المستقيمة المنفرجة والمائلة المنفرجة وحتي الأقواس الأهدبية المزينة بالتشويكات المنفرجة.

II - العناصر المتوازية:

يعطي ترتيب الخطوط المستقيمة المتوازية تنوعا أكبر من الأقواس وقد تعرفنا على متوازيات عمودية أفقية أو مائلة، ودعامات مندمجة على متوازيات عمودية يحصل عليها غالبا من تتابع خطوط قصيرة متوازية ومتغيرة الاتجاه مما جعل أكثر الدعامات المندمجة غير متصلة وقد يتمثل هذا التوازي بخطوط منكسرة مندمجة.

أمّا عن الزخارف المقوسة المتوازية فيمكن لكلّ من الأقواس، الأكاليل والتموجات وحتى الدوائر المتراكزة أن تكون موازية لنظيرتها، وقد رتبت النقاط أحيانا في خطوط مستقيمة أو مقوسة متوازية (أنظر الشكل 06).

III - الظلال:

اذا كانت الخطوط قصيرة مرتبة في مجموعات هي نفسها متوازيه فانّنا نحصل على تظليلات أفقية، عمودية أو مائلة.

ولم يعثر على ترتيب مخالف في العائلات الزخرفية الأخرى ونفس الأشكال المذكورة تكون مختلفة. كما يوضحها الرسم في الشكل.

VI- الحراشف والخطوط المتوازية المظللة:

انّ مايسمى بالحراشف هو عبارة عن خطين متوازيين مليئيين بالتظيلات المتوازية العمودية أو المائلة بالنسبة للخطين الرئيسيين، بحيث نحصل على حراشف مائلة قد تكون مندمجة مع دعامات مظللة متوازية.

وفي الزخرفة المقوسة فانّ هذه المجموعة تخلق أقواسا أو تموّجات كلها متوازية مظللة ولم يعثر على دوائر متراكزة مظللة ولا على أكاليل من هذا النوع. وقد نجد الحراشف مختلفة أو متعاكسة حسب مايبينه الرسم (أنظر الشكل 06).

VI- التشبيكات:

يمكن للحراشف المتقاربة أن تخلق تشبيكات تتكون أساسا من خطوط عمودية متوازية تقطع عموديا خطوطا أخرى أفقية متوازية تقطع عموديا خطوطا أخرى أفقية متوازية.

والتشبيكات المقروطية (المعينّة) تنتج عن تقاطع الخطوط المتوازية المائلة مع خطوط هي الاخري متوازية فيما بينها، وهذا النوع استعمل كذلك بين الدعامات والأقواس المتوازية.

V- العناصر المنفرجة:

وهي زخرفة تكثر الخطوط حول الفوهة وتتكون أمّا من خطوط مائلة منفرجة سواء ناتجة عن الحزّ والتنقيط والأقواس التي تكون منفرجة هي الأخرى.

وقد يشمل الانفراج الخطوط الأهدبية المائلة دائما حول الفوهة وكنّا قد أشرنا الى هذه الحالة سابقا، تخلق الخطوط المنفرجة المائلة المنفرجة المقطوعة بمتوازيات أفقية، خطوط منفرجة مظللة. وإذا كانت الخطوط المائلة منفرجة مقطوعة بأقواس متوازية فأنها تعطي تشبيكا وأخيرا اذا وجدت الخطوط المنفرجة موضوعة داخل المساحة المحصورة بين دائرتين فاننا نسّمي ذلك بزخرفة الدائرة المخططة (أنظر الشكل (07).

واذا احتوي خطان منفرجان على ظلال مختلفة بينهما فاننا نحصل على حراشف منفرجة متعاكسة.

VI-العناصر المتعارضة:

غالبا مانجد خطين متوازيين يعارضان خطين آخرين متوازيين كذلك بحيث تتكون زاوية قائمة ويمكن أن تخلق حراشف أو خطوط متوازية تعارض خطوطا متوازية أخرى لكن عمودية أو دعامتين متعارضتين رأسيا.

وقد يحدث التعرض بين دائرتين، فبدلا من أن تكونا متوازيتين نجد الواحدة الى جانب الأخرى.

حوصلة عامّة:

بعد تعرضنا لمختلف أنواع الزخارف على قشور بيض النعام، نلاحظ أنّ التطور الزخرفي جدّ ملموس اذ منذ الحضارة الايبيرية المغربية والقفصية القديمة عرف انسان مشتى آفلو وانسان مشتى العربي كيف يضفي الطابع الجمالي معبّرا عن أحاسيسه المادية والروحية.

أوّل ما بدأ به الانسان القفصي هو تمثيله للخطوط المتشابكة، المتعامدة، الأفقية أو العمودية لتوحي في الأخير بشكل سلال أو شباك ولعلّ ذلك ومن باب الفرضية وإنطلاقا من الاستعمالات الحالية لبيض النعام عند الشعوب البدائية كالبوشمان. حيث يشير بعض الكتاب الى أنّ المرأة عند البوشمان تحمل بيضتين أو ثلاثة متماسكة ببعضها البعض بواسطة حبال صغيرة من مختلف الإتجاهات لتكون

في الآخير شبكة تساعد القبض فتملأ هذه البيضات بالماء ثمّ تغطي الثقب بواسطة قطعة من الطين والحشيش، ففي منطقة المغرب ولو نفذ هذا الدليل الاّ أنّ التصور للأشياء يكاد يكون مطابق. فمنذ القفصية القديمة الى النيوليتي ذو التقاليد القفصية تعددت الأشكال الزخرفية من البسيطة الى المعقدة ومن الأشكال الهندسية الى الصور المستوحات من الطبيعية نباتية كانت أم أشكال حيوانية كتلك الموجودة بموقع ترنتول على حافة عرق اقيدي (الصحراء الجزائرية الغربية) وتعود الى الألف السابع قبل الميلاد، أو القطع التي عثر عليها في كهف جبل بوزبوين بالقرب من عين مليلة (منطقة قسنطينة) ومن هذه القطع واحدة تمثل رأس نعامة ومؤرخة بحوالي 4500 سنة قبل الميلاد.

ولعلّ الجانب الأكثر دلالة على مدى نوعية ودقة الزخرفة على الأدوات المنقولة سواء كانت حجارة مصفحة أو قشور بيض النعام وذلك منذ القفصية القديمة الى النيوليتي ذو التقاليد القفصية، نعثر على أشكال حيوانات مرسومة على بيض النعام في موقع الردايف (تونس)، موقع طولت في الجهة الأطلسية (المغرب الأقصى).

فالفنّ على الأدوات المنقولة يمكن تأريخه بسهولة اذ نعثر عليه في أغلب الأحيان في محتوي طباقي أثري بينما الرسومات الصخرية لايمكن أو يصعب تأريخها الا من باب الفرضية والمقارنة مع الرسومات المختلفة الأخرى.

الأشكال الحيوانية على الأدوات المنقولة كثيرة لاسيما على قشور بيض النعام، فالفنان في هذه الفترة تأثر بمحيطه ورسم الحيوانات التي تعيش في بيئته ومن الأمثلة على ذلك الثعلب (موقع الداموس الأحمر)، الغزال (موقع طولت)، الثور (موقع وادى منقوب) الظبي والخنزير (موقع طارنتول)، وثدييات مختلفة لموقع الردايف مصحوبة برسومات أخرى كالنعامة، ثور منقوش على بيضة كاملة بورقلة.

فبعد هذا العرض البسيط يمكن أن نستنتج أنّ الفنّ في منطقة المغرب لم يظهر كما يزعم البعض مع الرسومات الصخرية بل ترجع أصولة الى العصر الحجرية الأعلى المتأخر. فالانسان القفصي (فجر البحر المتوسط) لم يستغن عن الجانب المادي فبعد استهلاكه للبيضة استعملها كأنية ثمّ زخرفها واعتبرها من وسائل الزينة.

انّ الزخرفة على قشور بيض النعام لم تكن من الأمور الهينة، فطبيعة المادة الخام رخوة قد يطغى عليها ضغط خفيف لتتحطم، إلا أنّ الانسان القفصي عرف كيف يختار أدواته فكان عليه استعمال أدوات أكثر دقّة وذات الحافة الحادة فوجد في مادة الصوان الصلابة اللازمة فاستعملها وراح يتقن في أداء الحركات المختلفة عند الاستعمال. فنفذ بذلك أشكالا زخرفية تخضع في غالب الأحيان للمساحة

المخصصة لها، فبدون أي شك، التنفيذ الزخرفي قدتمّ على البيضة وهي في حالتها الكاملة هذا مادلتنا عليه القطع المنتشرة في بعض المواقع الأثرية عند توكيبها فقد يحدث عند عملية الزخرفة أن تنكسر البيضة وتفسد المساحة الفنية خاصة عند وضع الثقب الاهليليجية على احدى قطبيها. فطالما نجد خطوط محززة في وسط البيضة أو في جزءها العلوي فبعض الباحثين الغير مختصين يعتبرونها زخرفة هندسية الا أنّ هذه الخطوط ناتجة أساسا عن عملية القطع بواسطة أداة حادّة عند محاولة صنع الكؤوس الكبيرة والصغيرة، كذلك من الأمور المظللة هي كون بعض القطع الصغيرة تحمل أشكال معزلة قد تصنف مع الهندسية من خطوط عمودية أو أفقية، دعامات أوشباك الا أنّ البعض منها قد ينتمي الى رسم كامل لحيوان اندثر مع تحطم البيضة نظرا لعوامل عدة، المناخية منها خاصة في الصحراء وعند هبوب الرياح القوية تكشف عن مواقع أثرية جديدة غطتها الرمال من جراء الزوابع الرملية وبالعكس يساعد هذا العامل الديناميكي على حفظ المادة بعد تغطتها بالرمال. هذا ما تمكننا من ملاحظته بموقع برج ملالة بالقرب من ورقلة حيث عثر على بيض كامل غير مهشم الاّ أنه من سوء الحظّ لا تحمل زخارف.

خلال آلاف السنين وجدت الشعوب التي سكنت مناطق شمال افريقيا الساحلية، التلية والصحراوية، في بيض النعام مادة خام صالحة لانجاز بعضّ الأدوات الضرورية "كالزجاجات" استعمال هذه الأشكال استمر خلال فترة فجر التاريخ وحتى في الفترات التاريخية: الليبين والقرطاجيين، في حين أنّ درجة استعمالها تختلف من فترة الى فترة ومن منطقة الى أخرى. فكانت منتشرة في ثقافات العصر الحجري القديم الأعلي للسهول العليا الجزائرية والصحراء الشمالي: القفصية والورجلانة من الثقافات الأولى التي أهتمت بذلك، بالمقابل شعوب الحضارة الايبيرية- المغربية لم نتعرف الا عن خلال مواقعها الا على عددا قليلا ونادرا من قشور بيض النعام ولعلّ السبب في ذلك هو موقعها الجغرافي الساحلي، فطير النعام من الحيوانات التي تعيش في المناطق الاستبسية والصحراوية.

العصر الحجري الحديث ذو التقاليد القفصية وذلك الموجود في الصحراء الشمالية سادتها بقايا قشور بيض النعام، لكنّ الصحراء الجنوبية الجزائرية تظهر جد فقيرة بالمقارنة مع الجهة الغربية.

فما يمكن قوله، قبل ظهور الفنّ الصخري في المغرب، سمح بيض النعام بظهور الزخارف الأولى ورغم رخوة المادة، استمرت واحتفظت آلاف السنين من بعد.

المراجع

Paris, N. Alimen (H), Atlas de Préhistoire. Tome II, Préhistoire de L'Afrique. Boubée, 1966, 497 PP. 155 fig., 5tabl. 25 Pl

L'I.R.S., Camps (5), Le Néolithique de tradition capsienne au Sahara. Trav. de T.XXVI, 1967, PP. 85-96

africaine Camps-Faber (H.), Matiéres et Art mobilier dans la préhistoire nerd- et saharienne. Mém-V du C.R.A.P.E Paris, A. M. G., 1966, 574

Camps- Faber (H.à, Les Sculptures néolihiques de L'Erg d'Admer, Leur T relations avec celles du Tassili., n'Ajjer. Libyca, Anthrop. Préhist Ethnogr., XV, 1967, pp.101-123.

t. Faure (H.), Evolution des grands lacs sahariens à l'holocène Quaternaria, VIII, Vol. 15, 1966, PP. 167- 175, 1 Tab.

Huard(P.) et Massip (J.M.), Nouveaux centres de peintures rupestres au Sahara Nigero- tchadien. Bull. de L'I.F.A.N., t 28 (B). 1 semestre, 1966 PP. 48-81.

Occidental. Hugot (H.-J.), Recherches préhistoriques dans l'Ahaggar Nord- Mém. I du C.R.A.P. E., Paris A.M.G., 1963? 209 pages.

Hugot (H.-J.), Datations relatives à la préhistoire et au quaternaire de L'Afrique. Bull. de liaison de L'ASEQUA, n 13, Nov. 1967, PP. 27- 41

Morel (J.), Découverte d'une piérre à gorge dans une escargotiére capsienne oriental. de la région de Tebessa (Algerie). Les piérres à gorge du sahara Libyca Anthrop , préhistoire. Ethnogr., t Xv 1967, PP125-137.

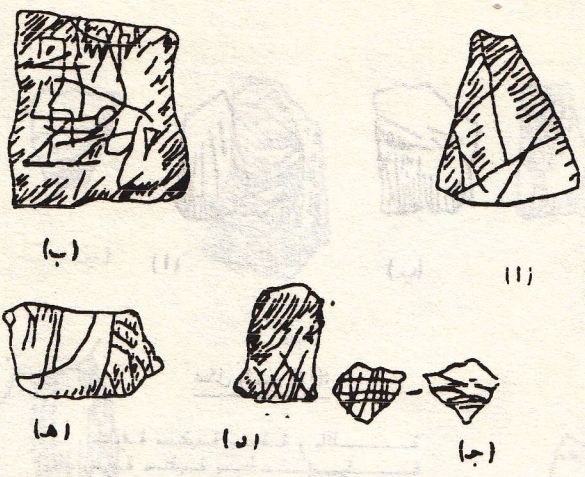

شكل رقم (1): قطع مزخرفة من الداخل

(أ)- خطوط متقاطعة دون انتظام
(ب)- حزوز غير منتظمة
(جـ)- خطوط شبكية منفرجة أو مائلة متوازية
(د)- خطوط متقاطعة غير منتظمة
(هـ)- خطوط متعارضة منفرجة .

شكل رقم (02): نماذج من الزخرفة الفوهية .

(ب) (ا)

شكل رقم (٠٣):

(أ)- زخرفة مستقيمة بسيطة و مائلة
(ب)- زخرفة مستقيمة بسيطة

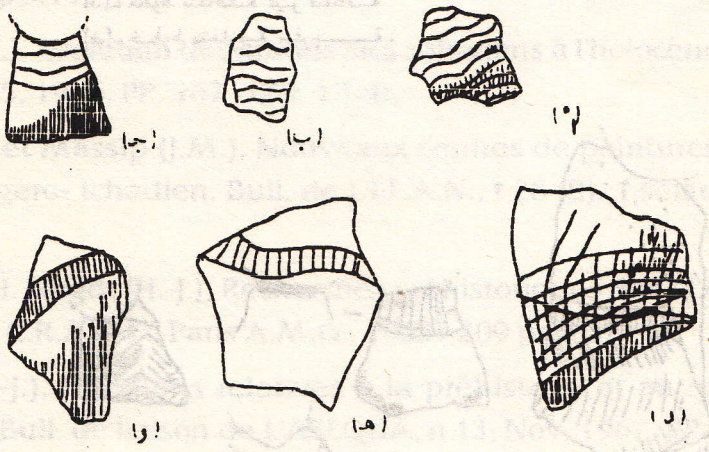

(جـ) (ب) (ا)

(د) (هـ) (و)

شكل رقم (٠٤):

(أ)- نموجات متوازية
(ب)- أكاليل متوازية
(جـ)- أقواس متوازية
(د)- أقواس متوازية شبكية
(هـ)- نموجات متوازية مظللة
(و)- أقواس متوازية مظللة.

شكل رقم (05): نماذج من زخرفة التنقيـــــط

(أ)- نقاط منحصرة بين خطوط مستقيمة أفقية

(ب)- نقاط داخل خط مقوس

(ج)- نقاط في خط مستقيم

(د)- نقاط على شكل خطوط مقوسة منفرجـــــة

(هـ)- " " " " مائلة منفرجـــــة

(و)- " " " " مقوسة منفرجـــــة

(ي)- (ر)- نقاط غير منتظمـــــــــــة .